سلسلة أفهم لماذا يجب أن تصحح خطأك

١٩

كلمة هادئة في

التنزيه

بقلم الدكتور

عمر عبد الله كامل

دار الرازي

سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

١٩

كلمة هادئة في

التنزيه

بقلم الدكتور

عمر عبد الله كامل

دار الرازي

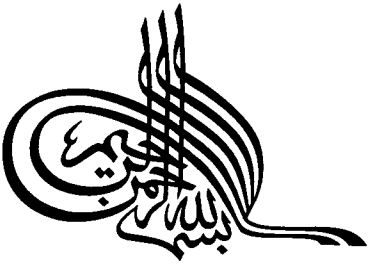

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الجهة والمكان والزمان

انتشرت في عصرنا مفاهيم خاطئة حول تفسير وفهم النصوص التي تتحدث عن الذات الإلهية المقدسة، وكان السبب الرئيس في ذلك اعتماد الخيال والوهم مصدراً للعقيدة والديانة، فتم قياس الغائب على الشاهد، فأثبتوا لله حيزاً يشغله، ومكاناً يحويه مع إقرارهم بأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء؛ فوقعوا في التناقض والاضطراب.

وكان من عمدتهم في إثبات المكان لله سبحانه: تفسيرهم الخاطئ للآية الكريمة: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]، وأخواتها من الآيات: ﴿...ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ...﴾[2]، وهن سبع آيات في القرآن الكريم، كان ذلك مع وجود التفسيرات العديدة اللائقة بذات الله سبحانه، المتفقة مع تنزيهه، المؤيدة بالقرائن والدلائل في نفس سياق الآيات، إضافة إلى آيات التنزيه العامة القاطعة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[4].

لذا قدمنا هذه الكلمات في إيضاح هذا المفهوم، فنقول مستعينين بالله سبحانه.

---

(١) طه، الآية (٥).

(٢) الأعراف، الآية (٥٤).

(٣) الشورى، الآية (١١).

(٤) الإخلاص، الآية (٤).

المكـــان

يطلـق المكـان عـلى: الحيـز الذي فيه الجسم والمحدود بأطراف الجـسم. أمـا في الاصـطلاح فـيقول البـيجوري: «والمكان عند أهل السنة هو: الفراغ الموهوم» اهـ.

أي الفراغ الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده، وسماه موهوماً؛ لأنه لا يوجد إلا في الوهم بعد أن يتخيله العقل بدون وجود الجسم فيه.

وفيه أقوال متقاربة:

أحـدها: أنـه الـسطح الـباطن للجـسم الحاوي المماس للسطح الظاهـر من الجسم المحوِيّ عليه، كالسطح الباطن من الكوز المماس للسطح الظاهر من الماء الذي فيه.

قال الراغب: المكان عند أهل اللغة: (الموضوع الحاوي للشيء).

الثاني: أنه الأبعاد التي بين غايات الجسم.

الثالث: أنه بُعد مفروض مقدَّر.

الرابع: أن المكان هو الخلاء، وهو رأي علماء الكلام.

ذكـر هـذه الأقـوال الأربعـة الزركـشي في «شرحـه» على «جمع الجوامع»، ونقلناها عنه باختصار.

فالمكان بهذا مستحيل في حق الله سبحانه؛ لأنه لو كان له مكان لكان جسماً، ولكان مماثلاً لمخلوقاته، وهذا محال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2].

ويلاحظ أن نفي المكان يستلزم نفي الحدود عن ذات الله تعالى، وكذا نفي الجهة.

ومن المعلوم أنه عز وجل واجب الوجود، كان ولا زمان ولا مكان، وهما - أعني الزمان والمكان- مخلوقان، وبالضرورة أن من هو في مكان فهو محيط به، ويكون مقدراً ومحدوداً، وهو سبحانه وتعالى منزه عن التقدير والتحديد، وعن أن يحويه شيء، وأن يحدث له صفة، تعالى الله عما يصفون وعما يقولون علواً كبيراً.

قال القاضي أبو يعلى الحنبلي في كتابه «المعتمد»: إن الله سبحانه وتعالى وتقدس لا يوصف بمكان.

فإن قيل: يلزم من نفي المكان نفي الجهات، ونفيها يُحيل وجوده.

فالجواب: وأيضاً إن كان الموجود يقبل الاتصال والانفصال فمسلَّم، فأما إذا لم يقبلهما فليس خُلُوّه من طريقي النقيض بمحال، ويوضح هذا: أنك لو قلت: كل موجود لا يخلو أن يكون عالماً أو

---

(١) الشورى، الآية (١١).

(٢) الإخلاص، الآية (٤).

جاهلاً. قلنا: إن كان ذلك الموجود يقبل الضدين فنعم، فأما إذا لم يقبلهما - كالحائط - مثلاً- فإنه لا يقبل العلم ولا الجهل، ونحن نُنَزِّه الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى كما نزه نفسه عن كل ما يدل على الحدوث، وما ليس كمثله شيء لا يتصوره وَهْم، ولا يتخيَّله خيال، والتصور والخيال إنما هما من نتائج المحسوسات والمخلوقات، وتعالى عن ذلك.

الزمان

يقول الإمام فخر الدين الرازي:

«قـــوله تعـــالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾[1]، وهذا مشعر بأن المكان وكل ما فيه ملك لله تعالى.

وقـوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[2] وذلـك يـدل على أن الزمان وكل ما فيه ملك لله تعالى.

ومجمـوع الآيتـين يـدلان عـلى أن المكـان والمكانـيات والزمان والـزمانيات كلهـا ملـك لله تعالى، وذلك يدل على تنزيهه عن المكان والـزمان، وهـذا الـوجه ذكـره أبو مسلم الأصفهاني -رحمه الله- في «تفسيره». اهـ من «أساس التقديس»[3].

---

(١) الأنعام، الآية (١٢).

(٢) الأنعام، الآية (١٣).

(٣) ص ٣٢.

التنزيه عن المكان والجهة والزمان
في أقوال الصحابة والتابعين والأئمة

١ - قال الصحابي الجليل والخليفة الراشد سيدنا علي ﷺ (٤٠ هـ) ما نصه: كان [الله] ولا مكان، وهو الآن على ما [عليه] كان اهـ. أي: بلا مكان[١].

٢ - وقال أيضاً: إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته، لا مكاناً لذاته. اهـ[٢].

٣- وقال أيضاً: من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود. اهـ[٣] المحدود: ما له حجم صغيراً كان أو كبيراً.

٤ - وقال التابعي الجليل الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم (٩٤ هـ) ما نصه: أنت الله الذي لا يحويك مكان. اهـ[٤].

---

(١) «الفرق بين الفرق» لأبي منصور البغدادي، ص٣٣٣.

(٢) السابق.

(٣) «حلية الأولياء» ترجمة علي بن أبي طالب، ١/ ٧٣.

(٤) «إتحاف السادة المتقين» ٤/ ٣٨٠.

٥- وقال أيضاً: أنت الله الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً. اهـ[١].

٦- وقال الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين رضوان الله عليهم (١٤٨هـ) ما نصه: من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك.

إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً- أي مخلوقاً. اهـ[٢].

٧- قال الإمام المجتهد أبو حنيفة النعمان بن ثابت ﷺ (١٥٠هـ) أحد مشاهير علماء السلف، وإمام المذهب الحنفي ما نصه: والله تعالى يُرى في الآخرة، ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كيفيّة، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة[٣].

٨- وقال أيضاً في كتابه «الوصية»: ولقاء الله تعالى لأهل الجنة بلا كيف ولا تشبيه ولا جهة: حق. اهـ[٤].

٩- وقال أيضاً: قلت: أرأيت لو قيل: أين الله تعالى؟ فقال- أي أبو

---

(١) السابق

(٢) ذكره القشيري في «رسالته» المعروفة بـ «الرسالة القشيرية» ص٦.

(٣) ذكره في «الفقه الأكبر»، «أنظر شرح الفقه الأكبر» لملا علي القاري، ص ١٣٦-١٣٧.

(٤) الوصية ص٤، ونقله ملا علي القاري في «شرح الفقه الأكبر» ص١٣٨.

حنيفة-: يقال له: كان الله تعالى ولا مكان قبل أن يَخلق الخلق، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء، وهو خالق كل شيء. اهـ[١]

١٠- وقال أيضاً: ونقر بأن الله سبحانه وتعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة إليه واستقرار عليه، وهو حافظ العرش وغير العرش من غير احتياج، فلو كان محتاجاً لما قدر على إيجاد العالم وتدبيره كالمخلوقين، ولو كان محتاجاً إلى الجلوس والقرار فقَبْل خلق العرش أين كان الله؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اهـ[٢]

١١- وقال الإمام المجتهد محمد بن إدريس الشافعي ﷺ إمام المذهب الشافعي (٢٠٤هـ) ما نصه: إنه تعالى كان ولا مكان، فخلق المكان وهو على صفة الأزلية كما كان قبل خلقه المكان لا يجوز عليه التغيير في ذاته، ولا التبديل في صفاته. اهـ[٣]

١٢- وأما الإمام المجتهد الجليل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن

---

(١) «الفقه الأبسط» ضمن «مجموعة رسائل أبي حنيفة» ص٢٥.

(٢) كتاب «الوصية»، ضمن «مجموعة رسائل أبي حنيفة» ص٢، وملا علي القاري في «شرح الفقه الأكبر» ص٧٥ عند شرح قول الإمام: " ولكن يده صفته بلا كيف ".

(٣) «إتحاف السادة المتقين» ٢/ ٢٤.

حنبل الشيباني (٢٤١هـ) ﷺ إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، فقد ذكر الشيخ ابن حجر الهيثمي أنه كان من المنزهين لله تعالى عن الجهة والجسمية، ثم قال ابن حجر ما نصه: وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه. اهـ[1]

١٣- وكذا كان على هذا المعتقَد الإمام شيخ المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري صاحب «الصحيح» (٢٥٦هـ)، فقد فهم شراح «صحيحه» أن البخاري كان ينزه الله عن المكان والجهة.

١٤- وقال الإمام الحافظ الفقيه أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي الحنفي (٣٢١هـ) في رسالته «العقيدة الطحاوية» ما نصه: وتعالى- أي الله- عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات. اهـ.

١٥- وقال الحافظ محمد بن حبان (٣٥٤هـ) صاحب «الصحيح» المشهور بـ «صحيح» ابن حبان ما نصه: الحمد لله الذي ليس له حد محدود فيحتوى، ولا له أجل معدود فيفنى، ولا يحيط به

---

(١) «الفتاوى الحديثية» ص١٤٤.

جوامع المكان، ولا يشتمل عليه تواتر الزمان[١].

١٦- وقال أيضاً ما نصه: كان- [الله] ولا زمان ولا مكان[٢].

١٧- وقال أيضاً: كذلك ينزل- يعني الله- بلا آلة ولا تحرك ولا انتقال من مكان إلى مكان[٣].

١٨- وقال الشيخ أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ) صاحب «معالم السنن» ما نصه: وليس قولنا: إن الله على العرش: أي مماس له، أو متمكن فيه، أو متحيز في جهة من جهاته، بل هو خبر جاء به التوقيف فقلنا به، ونفينا عنه التكييف؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٤][٥].

١٩- وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الشافعي (٤٥٨ هـ) ما نصه: والذي روي في آخر هذا الحديث[٦] إشارة إلى نفي المكان

---

(١) «الثقات» ١/ ١.

(٢) «صحيح» ابن حبان، انظر «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» ٨/ ٤.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٣٦.

(٤) الشورى، الآية (١١).

(٥) انظر «فتح الباري»، ١٣/ ٤١٣.

(٦) أي الحديث: «الذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله تبارك وتعالى». وهو حديث ضعيف أخرجه الترمذي (٣٢٩٨)، وأحمد ٢/ ٣٧٠.

عن الله تعالى[١]، وأن العبد أينما كان فهو في القرب والبعد من الله تعالى سواء، وأنه الظاهر؛ فيصح إدراكه بالأدلة، الباطن؛ فلا يصح إدراكه بالكون في مكان.

واستدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي ﷺ «أنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[٢]، «وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء: لم يكن في مكان»[٣].

٢٠- وقال أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في زمانه (٥١٣هـ) ما نصه: تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة، هذا عين التجسيم، وليس الحق بذي أجزاء وأبعاض يعالج بها[٤].

٢١- وقال القاضي الشيخ أبو الوليد محمد بن أحمد قاضي الجماعة بقرطبة المعروف بابن رشد الجد المالكي (٥٢٠هـ) ما نصه: ليس- الله- في مكان، فقد كان قبل أن يخلق المكان .اهـ ذكره ابن

---

(١) آخر الحديث قراءته ﷺ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]..

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٣) «الأسماء والصفات» ص٤٠٠.

(٤) «الباز الأشهب» الحديث الحادي عشر، ص٨٦.

الحاج المالكي في كتابه «المدخل»[١].

٢٢- وقال الحافظ المؤرخ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشهير بابن عساكر الدمشقي (٥٧١هـ) في بيان عقيدته التي هي عقيدة أبي الحسن الأشعري نقلاً عن القاضي أبي المعالي بن عبدالملك ما نصه: قالت النجارية: إن البارئ- سبحانه- بكل مكان من غير حلول ولا جهة.

وقالت الحشوية والمجسمة: إنه -سبحانه- حالٌ في العرش، وإن العرش مكان له، وهو جالس عليه. فسلك - أي الأشعري - طريقة بينهما فقال: كان ولا مكان، فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان، وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه[٢].

٢٣- قال الإمام الحافظ المفسر عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) ما نصه: الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا تتبعض، ولا يحويها مكان، ولا توصف بالتغير. ولا بالانتقال[٣].

٢٤- وقال أيضاً: ترى أقواماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس، كقول قائلهم: ينزل بذاته إلى

---

(١) «المدخل» لابن الحاج المالكي، فصل في الاشتغال بالعلم يوم الجمعة ٢/١٤٩.

(٢) «تبيين كذب المفتري» ص١٥٠.

(٣) «دفع شبه التشبيه» ص٥٨.

السماء وينتقل! وهذا فهم رديء؛ لأن المنتقل يكون من مكان إلى مكان، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه، ويلزم منه الحركة، وكل ذلك محال على الحق عز وجل[١].

٢٥- وكان الشيخ أبو منصور- فخر الدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن عساكر (٦٢٠هـ) يقرئ العقيدة المرشدة، ومما فيها [الله] موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، ولا يقال: متى كان؟ ولا: أين كان؟ ولا: كيف؟ كان ولا مكان، كوّن الأكوان، ودبّر الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان..[٢].

٢٦- وقد أثنى الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي (٦٤٦هـ) على العقيدة التي كتبها الشيخ العز بن عبد السلام، ومما جاء في هذه العقيدة قول العز بن عبد السلام: كان- الله- قبل أن كوَّن المكان ودبَّر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان .اهـ.

ومن جملة ما ذكره في ثنائه: قوله: ما قاله ابن عبد السلام هو مذهب أهل الحق، وإن جمهور السلف والخلف على ذلك، ولم

---

(١) «صيد الخاطر» ص٤٧٦.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ١٨٦.

يخالفهم إلا طائفة مخذولة، يخفون مذهبهم ويدسّونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله[١].

٢٧- وقال الشيخ العز بن عبد السلام الأشعري الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ) ما نصه: ليس- أي الله- بجسم مصوَّر، ولا جوهر محدود مُقدَّر، ولا يشبه شيئاً، ولا يُشبهه شيء، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات، كان قبل أن كوَّن المكان ودبَّر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان[٢].

٢٨- وقال الحافظ أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي الشافعي الأشعري (٦٧٦هـ) ما نصه: يقولون - معظم السلف أو كلهم -: يجب علينا أن نؤمن بها- آيات وأحاديث والصفات - ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسّم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق[٣].

٢٩- وقال العلامة الأصولي الشيخ أحمد بن إدريس القَرّافي المالكي المصري (٦٨٤هـ) أحد فقهاء المالكية ما نصه: وهو- أي

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ترجمة العز بن عبد السلام، ٨/ ٢٣٧.
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ترجمة العز بن عبد السلام، ٨/ ٢١٩.
(٣) «شرح صحيح مسلم» ٣/ ١٩.

الله- ليس في جهة، ونراه نحن وهو ليس في جهة[١].

٣٠- وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي الأشعري (٨٩٢ هـ) ما نصه: ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محالاً على الله أن لا يوصف بالعلو، لأن وصفه بالعلو؛ من جهة المعنى، والمستحيلُ كون ذلك من جهة الحس؛ ولذلك ورد في صفته: العالي والعلي والمتعالي، ولم يرد ضد ذلك وإن كان قد أحاط بكل شيء علماً، جلّ وعز[٢].

٣١- و قال أيضاً عند شرح حديث النزول ما نصه: استدل به مَن أثبت الجهة، وقال: هي جهة العلو. وأنكر ذلك الجمهور[٣]؛ لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز، تعالى الله عن ذلك[٤].

٣٢- وقال أيضاً: فمعتمد سلف الأئمة وعلماء السنة من الخلف أن الله منزه عن الحركة والتحول والحلول، ليس كمثله شيء[٥].

٣٣- وقال الشيخ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (٩٢٣هـ) في «شرحه» على «صحيح» البخاري ما نصه :

---

(١) «الأجوبة الفاخرة» ص٩٣.
(٢) «فتح الباري» ٦/ ١٣٦.
(٣) أي: أهل السنة والجماعة.
(٤) «فتح الباري» ٣/ ٣٠.
(٥) «فتح الباري» ٧/ ١٢٤.

ذات الله منزهة عن المكان والجهة[١].

٣٤- وقال أيضاً ما نصه: قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿نَّاضِرَة ﴾ حسنة ناعمة ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بلا كيفية ولا ثبوت مسافة[٢].

٣٥- وقال الشيخ القاضي زكريا الأنصاري الشافعي الأشعري (٩٢٦هـ) في «شرحه» على «الرسالة القشيرية» ما نصه: إن الله ليس بجسم ولا عَرَض، ولا في مكان ولا زمان[٣].

٣٦- وقال أيضاً ما نصه: لا مكان له -تعالى- كما لا زمان له؛ لأنه الخالق لكل مكان وزمان[٤].

٣٧- وقال في كتابه «فتح الرحمن» ما نصه: هو تعالى منزه عن كل مكان[٥].

وعلى ذلك درج جمهور علماء الأمة الذين يعتمد كلامهم، وإنما نقلنا نماذج قليلة تمثل الجمهور.

---

(١) «إرشاد الساري» ١٥/ ٤٥١.

(٢) «إرشاد الساري» (١٥/ ٤٦٢).

(٣) «حاشية الرسالة القشيرية» ص٢.

(٤) «حاشية الرسالة القشرية» ص٥.

(٥) «فتح الرحمن» تفسير سورة الملك، ص٥٩٥.

فصل في معاني الاستواء وآيات الاستواء

الاستواء في اللغة على وجوه:

١ - بمعنى استقر[1]:

---

(١) والاستقرار -وهو المعنى الحقيقي المتبادر من لفظ (الاستواء) في اللغة- وبقية المعاني المذكورة لهذا اللفظ هي صور بلاغية مقتبسة من هذا المعنى الحقيقي، يقول الإمام تقي السبكي في «السيف الصقيل»: والمعنى الثاني للاستواء في اللغة: الجلوس والقعود، ومعناه مفهوم من صفات الأجسام لا يعقل منه في اللغة غير ذلك، والله منزه عنها، ومن أطلق القعود وقال إنه لم يُرد صفات الأجسام: قال شيئاً لم تشهد به اللغة؛ فيكون باطلاً، وهو كالمقر بالتجسيم المنكر له، فيؤاخذ بإقراره ولا يفيد إنكاره.

واعلم أن الله تعالى كامل الملك أزلا وأبداً، ولكن العرش وما تحته حادث، فإن قوله: ﴿ ثم استوى على العرش﴾ لحدوث العرش لا لحدوث الاستواء. اهـ ص ٨٧.

وقد ورد تفسير (الاستواء) بـ(الاستقرار والجلوس) في خبر موضوع على ابن عباس، ورواه الإمام البيهقي في «الأسماء والصفات»: عن محمد ابن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح- وهذه سلسلة الكذب عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ يقول: استقر على العرش ويقال: امتلأ به، ويقال: قائم على العرش، وهو السرير. وأكد الإمام البيهقي بطلان هذا الخبر.

يقول المفسر النيسابوري -رحمه الله- في تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، خاصة قوله تعالى فيها: ﴿ثم استوى على العرش﴾، وقد جاء بين جزءين من الآية: إن قوله تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ تدل على قدرته=

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[1]، وهذه صفة المخلوق الحادث، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[2]، وهو نزه نفسه عن ذلك في كتابه العزيز بآيات التنزيه ونفي التشبيه والتمثيل.

٢- ومنها: القصد إلى الشيء:

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[3] قصد خلقها.

=وحكمته، وكذا قوله تعالى ﴿يغشى الليل النهار﴾ فلو كان المراد من (الاستواء) هو (الاستقرار) كان أجنبياً عما قبله وعما بعده؛ لأنه ليس من صفات المدح؛ إذ لو استقر عليه بقّ وبعوض صدق عليه أنه استقر على العرش.

فإذن المراد بالاستواء كمال قدرته في تدبير الملك والملكوت؛ حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها .أ.هـ من «تفسيره» ٨/ ١٠٧.

قلنا في «تهذيب واختصار شرح السنوسية»: بعض ما يستحيل على الله عز وجل: (أَوْ يَتَقَيَّد بِمَكَانٍ). ويستحيل على الله تعالى أن يتقيد بمكان. وحقيقة المكان: هو استقرار جرم على جرم.

فالمستقر عليه هو المكان؛ لأن الله لو كان له مكان لكان جرماً، ولو كان جرماً لانتفت المخالفة؛ ونفي المخالفة عن الله تعالى محال. ولاحظ أن نفي المكان يستلزم نفي الحدود عن ذات تعالى كما نص عليه أهل السنة.

(١) هود، الآية (٤٤).

(٢) الزخرف، (١٢-١٣).

(٣) فصلت، الآية (١١).

قال الإمام الزركشي في «البرهان في علوم القرآن»: قال الأستاذ: والصواب ما قاله الفراء والأشعري وجماعة من أهل المعاني؛ أن معنى قوله: ﴿استوى﴾ أقبل على خلق العرش، وعمد إلى خلقه، فسماه استواءً كقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ أي: قصد وعمد إلى خلق السماء، فكذا هاهنا. قال: وهذا القول مرضي عند العلماء ليس فيه تعطيل ولا تشبيه[1].

والأستاذ المشار إليه في النقل السابق هو إسماعيل الضرير المفسر المقرئ المحدث.

قلت: قد ذكر العلامة الخضر الشنقيطي أيضاً أن (على) تأتي بمعنى (الباء) وبمعنى (إلى)، ثم قال: وحروف الجر وتعاقبها في كلام العرب غير محصور[2].

٣- ومنها: إتمام الشيء:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[3] ويكون معنى قوله تعالى: ﴿على العرش استوى﴾: استتم خَلْقه بالعرش فلم يخلق خارج العرش شيئاً، وجميع ما خلق ويخلق دنيا وأخرى لا يخرج عن دائرة

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» ٢/ ٨٢.

(٢) «استحالة المعية بالذات» ص ٣٦٣.

(٣) القصص الآية (١٤).

العرش؛ لأنه حاوٍ لجميع الكائنات، ومع ذلك فلا يزن في مقدوراته تعالى ذرة، فأني يكون مستقرّاً؟! قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، وقال: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[1].

فعلى هذا التقدير يكون فاعل (استوى) ضميراً عائداً على المصدر المفهوم من لفظ (خلق) في أول كل آية من الآيات الست[2]، أما الآية السابعة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[3] فيعود الضمير (فاعل ﴿استوى﴾) على المصدر المفهوم من ﴿رفع﴾.

وهذا جائز لغةً، قال تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4]، فالضمير ﴿هو﴾ يعود على العدل المفهوم من فعل الأمر ﴿أعدلوا﴾.

و ﴿على﴾ بمعنى الباء في قوله تعالى: ﴿على العرش﴾، فيكون المعنى: استتم واستكمل الخلق بالعرش فلم يخلق شيئاً فوق

---

(١) الفتح، الآية (٢٩) أي: استتم ذلك الزرع وقوي.

(٢) أي التي ورد فيها ﴿استوى على العرش﴾، وهي: الأعراف ٥٤، يونس ٣، طه ٥ (وفيها: ﴿على العرش استوى﴾)، الفرقان٥٩، السجدة ٤، والسابعة التي في الرعد ستتكلم عليها توّاً.

(٣) الرعد الآية(٢).

(٤) المائدة الآية (٨).

العـــرش، وإتـيان (عـلى) بمعنـى (البـاء) وارد في كتاب الله تعالى: ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾[1]، فقوله: ﴿ على أن ﴾ هنا معناه: ﴿ بأن ﴾، وقد قرئ في بعض القراءات: ﴿ حقيق بي ﴾. ذكر هذا التأويل الإمام أبو طاهر القزويني، ونقله عنه العلامة محمد الخـضر الـشنقيطي في «استحالة المعية بالذات»[2]، وقال عنه: إنه من أحـسن الـتأويلات، ومخـرج مـن كل شبهة واردة»، ونقله وارتضاه أيـضاً الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»، واختاره وارتضاه كذلك ابن حزم -رحمه الله- في كتابه «الفصل».

٤- التأويل الرابع : الاستعارة التمثيلية:

الاستعارة التمثيلية - كما يقول علماء البيان -: تركيب استعمل في غـير مـا وضـع له؛ لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصـلي. وكـما هـو معلـوم فلـيس هـناك قـرينة أقوى من تنزيه الله سبحانه عن الجسمية ولوازمها.

وفي مـسألتنا هـذه - الاسـتواء - يكـون التأويل بأن يشبه شأنه تعالى في تدبيره لأمر ملكه ونفاذ سلطانه على كافة خلقه بحال الملك

---

(١) الأعراف، الآية (١٠٥).

(٢) ص٣٦٠-٣٦٣.

العظيم المستوي على عرش مملكته النافذ السلطان على كل من فيها، ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم.

وهذا يعدّ من أقوى التأويلات في مسألة الاستواء.

ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية ما يقال لمن يأتي بالقول الفصل: (قطعت جهيزة قول كل خطيب) من غير أن يكون هناك جهيزة ولا خطيب، **وإنما هو تشبيه حال بحال.**

أو كقول أحدهم لمن رآه يعزم على الأمر مرة ويعدل عن عزمه أخرى: (ما لي أراك تقدّم رِجلاً وتؤخر أخرى؟!)، ولا رِجل هناك ولا تقديم لها ولا تأخير، وإنما هو معنى الإقدام والإحجام أورد في هذه الصورة الحسية.

وكذا يقال: (استوى على عرش المملكة الفلانية)؛ إذا تولى ملكها، ويقال: (ثل عرشه)؛ إذا زال عنه الملك.

وكثر ذلك حتى أصبح لا يكاد يلتفت الذهن إلى المعنى الأصلي الأول المنقول منه، فإذا سمع العربي: (استوى فلان على عرش العراق) أو (على عرش مصر) لم يخطر بباله قعود على عرش، ولا جلوس على سرير، بل يسبق فهمه إلى المراد بهذا التركيب....

٥- التأويل الخامس: الاستواء هو الاعتدال:

يقول د. إبراهيم عبد الرحمن: أن يكون من الاعتدال بمعنى القيام بالعدل في الخلق والتدبير. اهـ.

يقول الإمام ابن اللبان: قد قررنا (استوى) افتعل من السواء، وأصله (العدل)، وحقيقة الاستواء المنسوب إلى ربنا في كتابه بمعنى العدل، أي: أقام العدل، وأصله من قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[1]

والعدل هو استواؤه، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته للتعرف إلى خلقه بوحدانيته، ولذلك قرنه بقوله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]. والاستواء المذكور في كتابه استواءان: استواء سماوي، واستواء عرشي... » إلى أن قال:

«وأما الاستواء العرشي: فهو أنه تعالى قام بالقسط معترَفاً بوحدانيته في عالمين: عالم الخلق وعالم الأمر، وهو عالم التدبير ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[3]، فكان استواؤه للتدبير بعد انتقاء عالم الخلق لقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾[4]، وبهذا تم سِرُّ تعدية الاستواء العرشي بـ (على)؛ لأن التدبير للأمر لا بد فيه من استعلاء واستيلاء» اهـ المقصود منه[5].

---

(١) آل عمران، الآية (١٨).
(٢) آل عمران، الآية (١٨).
(٣) الأعراف، الآية (٥٤).
(٤) يونس، الآية (٣).
(٥) «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات»، ص ٤١.

بين التفويض والتأويل

المحكم والمتشابه:

عرَّف العلماء المحكم من آيات القرآن الحكيم بأنه ما كان راجح الدلالة بنفسه، أو ما نزل منزلته من المؤلات تأويلاً قريباً لا يصعب إدراكه على العامة فضلاً عن الخاصة. والمتشابه ما ليس كذلك.

وقد مثل العلماء للمتشابه: بآيات الصفات، وآيات الاستواء على العرش، وكونه في السماء، وحديث النزول، وآيات ذِكْر اليد والقدم والأصابع.....إلخ.

وعن فهم وتفسير هذه النصوص يقول الإمام النووي عند شرحه لحديث النزول[1].

«هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق، إيضاحهما في كتاب الإيمان، ومختصرهما: أن أحدهما- وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين- أنه يؤمَن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يُتكلم في تأويلها، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق، وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق. والثاني، مذهب أكثر

---

(١) «شرح صحيح مسلم»، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل ...، ح (٧٥٨).

المتكلمين وجماعات من السلف، وهو محكي هنا عن مالك والأوزاعي- أنها تُتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها؛ فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين: أحدهما: تأويل مالك بن أنس وغيره: معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته، كما يقال: فعل السلطان كذا؛ إذا فعله أتباعه بأمره. والثاني: أنه على الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف. والله أعلم» اهـ.

ويقول العلامة كمال الدين بن أبي شريف في «شرحه» على «المسايرة»:

واعلم أن كلام إمام الحرمين من «الإرشاد» يميل إلى طريق التأويل، ولكنه في «الرسالة النظامية» اختار طريق التفويض حيث قال: «والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقد إتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها»، وكأنه رجع إلى اختيار التفويض لتأخر «الرسالة». ومال الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى التأويل فقال في بعض فتاويه: «طريقة التأويل بشرطها أقربهما إلى الحق»، ويعني بشرطها أن يكون على مقتضى لسان العرب. وتوسط ابن دقيق العبد فقال: «يقبل التأويل إذا كان المعنى الذي أوّل به قريباً مفهوماً من تخاطب، ويتوقف فيه إذا كان بعيداً»، وجرى شيخنا المصنف على التوسط بين أن تدعو الحاجة إليه لخلل في فهم العوام، وبين أن لا تدعو الحاجة لذلك» اهـ.

سبب إحجام كثير من الصحابة والتابعين عن التأويل:

قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ». رواه أبو داود والترمذي والنسائي[1].

وقال: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». رواه الترمذي وحسنه[2]، وفي رواية: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم؛ فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار»[3].

وقد حمل العلماء النهي على وجهين:

الأول: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل عن طبعه وهواه؛ فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه؛ ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح من القرآن ذلك المعنى سواء كان عالماً بما يصنعه من التلبيس على الناس أم لا.

وقد استعمل أهل البدع من القدرية والباطنية ومن شابههم هذا

---

(١) أبو داود (٣٦٥٢)، الترمذي (٢٩٥٢)، النسائي «الكبرى» (٨٠٨٦).

(٢) الترمذي (٢٩٥٠)، ورواه أحمد ١/ ٢٣٣، ٢٦٩، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٨٤).

(٣) الترمذي (٢٩٥١) وقال: «حديث حسن»، ورواه أحمد ١/ ٣٢٣، ٣٢٧، وقوله «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» في «الصحيحين» من حديث: الزبير وأنس وسلمة بن عمرو وعلي وأبي هريرة والمغيرة وعبد الله بن عمرو وأبي سعيد، انظر: البخاري (١٠٦-١١٠، ١٢٩١، ٣٤٦١، ٦١٩٧)، مسلم (٢-٤، ٣٠٠٤).

الأسلوب؛ للتغرير بالناس ودعوتهم إلى باطلهم.

الثاني: أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذق والإضمار والتقديم والتأخير، وغير ذلك.

ومن هذين النصين تتبين الدواعي والأسباب في إحجام وامتناع أغلب السلف عن التأويل:

١) روى ابن جرير الطبري[1] بإسناد صحيح عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[2] قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأبّ؟ فقال لعمرك: يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف!

٢) وروى أبو عبيد القاسم بن سلام[3] عن إبراهيم التيمي: أن أبا بكر الصديق ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، فقال: أي سماء تظلني، أو أي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!

ذكرهما ابن كثير في تفسيره لسورة (عبس)

فما بالكم إذاً بآيات المتشابه التي تتحدث عن صفات الله تعالى؟!

---

(١) «تفسير» الطبري ١٢/ ٤٥١.

(٢) عبس، الآية (٣١).

(٣) في «فضائل القرآن» له، باب تأويل القرآن بالرأي. ورواه الطبري في تفسيره من طريقين آخرين ١/ ٥٨ .

كلام المفسرين في معنى الاستواء

ولننتقل الآن إلى كلام المفسرين حول معنى الاستواء:

١ - قال ابن كثير في «تفسيره»[١]: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٢] فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدّاً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣] بل الأمر كما قال الأئمة، منهم: نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري، قال: من شبَّه الله بخلقه كفر، ومن وصف الله بما لم يصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال

---

(١) ٢/ ٢٩٤.

(٢) الأعراف، الآية (٥٤).

(٣) الشورى، الآية (١١).

الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى» اهـ.

٢- وفي «الدر المنثور»[1] للسيوطي: «وأخرج ابن مردويه واللالكائي في «السنة» عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها في قوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2] قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر...

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال: كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه».

٤- وفي «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»[3] لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي: «والمعتقد في هذا أنه سبحانه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزَّهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحَمَلته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، كان الله ولا شيء معه، كان -سبحانه- قبل أن يخلق المكان والزمان وهو الآن على ما عليه كان».

---

(١) ٣/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) الأعراف، الآية (٥٤).

(٣) ٢/ ٢٦٣.

خاتمة

تبين مما سبق أن رب العزة سبحانه وتعالى متنزِّه عن المكان والمكانيات وعن الزمان والزمانيات، فهو سبحانه خالق كل شيء ومقدره تقديراً، جلَّت ذاته المقدسة وتعالت عن التقدير والإحاطة سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

هذه المفاهيم

هذه السلسلة نبدأ فيها باستعراض مفاهيم جمهور الأمة المعصومة حول بعض النقاط أو الموضوعات، وكيف بنى الجمهور هذه المفاهيم واستمدها من نصوص الكتاب والسنة متدبراً لهما بالعقل الراجح الصحيح جيلاً بعد جيل ناقلاً لنا هذه المفاهيم مع نصوص الكتاب والسنة منقياً لمفاهيمه من الأهواء والنزغات، فكان بحق معبراً عن خير أمة أخرجت للناس حفظ الله بها الدين﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾. لعل هذه السلسلة تكون بشير خير لمن يريد مراجعة مفاهيمه على ضوء الكتاب والسنة مستعيناً بإخوانه فإن يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية والشاردة والشاذة. والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دار الرازي
للطباعة والنشر والتوزيع

عمان - العبدلي - عمارة البنك الإسلامي
هاتف 4646116 - 6 - 00962 فاكس 4646106 - 6 - 00962
ص.ب 927601 عمان 11190 الأردن
e-mail: alrazi003@yahoo.com
www.al-razi.net